الألفة السياسيّة في القرآن الكريم -تاريخها وأهدافها-

الدكتور علي شيرخاني[1]؛ الدكتور نبيل اليعقوب[2]

خلاصة المقالة:

لفظة «الألفة» لها مفهوم عامّ وواسع، يُستعمل تارةً في المعاني المادّيّة، وفي المعاني المعنويّة تارةً أخرى. والمراد من الألفة في هذه الدراسة هو الألفة السياسيّة المعنويّة؛ وهي إحدى الأطروحات القرآنيّة التابعة للعلوم الإنسانيّة، وتعني الاجتماع والالتئام؛ وفقًا للعهود والمواثيق القائمة على أساس الإيمان، مع وجود المعصوم عليه السلام أو من ينوب منابه؛ من أجل تحقيق الأهداف السياسيّة الكبرى.

ولم تقتصر الألفة السياسيّة على عصر دون عصر، بل إنَّها تتحقّق كلَّما تحقّقت شروطها وتوافرت عناصرها؛ ولهذا، نجد أنّ لها جذورًا ممتدّة في أعماق التاريخ الدينيّ، وأنَّ أوضح صورها في التاريخ هو الاستقرار السياسيّ والاقتصاديّ والأمنيّ الذي تحقّق لقبيلة قريش، ومن ثمَّ القبائل التي كانت تسكن الحجاز؛ ببركة الألفة السياسيّة التي نجمت عن إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، والعهود التي كانت بينهم وبين الفرس والروم، كما إنَّ أوضح صورها بعد الإسلام هي الألفة السياسيّة التي تحقّقت بين الأوس

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من إيران.
(2) باحث في الفكر الإسلاميّ، من إيران.

والخزرج، فجعلتهم إخوانًا أولياء بعضهم لبعض، بعد أنْ كانوا يعيشون في حروب وأحقاد.

وللألفة السياسيّة كثيرٌ من الأهداف والغايات؛ من أبرزها تقوية الجانب السياسيّ، وتعزيز القوَّة العسكريّة، وتعميق العلاقات ومراعاة القيم الإنسانيّة، ولها دور كبير في تنظيم شؤون الحياة الاجتماعيّة، وأثرٌبالغ في استقرار الوضع الاقتصاديّ والأمنيّ وتحسين حالة الناس المعيشيّة.

كلمات مفتاحيّة:

الألفة السياسيّة، القرآن الكريم، قريش، الأوس والخزرج، الإسلام، الإنسان، المجتمع، السياسة، الاقتصاد، الأمن.

مقدّمة:

الألفة من الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم بنحو نادر في بعض الآيات القرآنيّة، ولكنَّها تعتبر من الألفاظ المهمَّة؛ كونها تحمل بُعدًا سياسيًّا عندما نتمعّن في معاني هذه الآيات وتفسيرها، بل إنَّ ذلك يستدعي التأسيس لأطروحة قرآنيّة في العلوم الإنسانيّة تحمل عنوان الألفة السياسيّة في القرآن الكريم، حيث يتحقّق مفهوم الألفة السياسيّة عندما تتقارب القلوب وتلتئم؛ للابتعاد عن النزاع والتفرقة والتجاذبات السياسيّة التي تحول دون إنجاز الأعمال الكبرى والأهداف العظمى، علمًا أنَّ لفظ الألفة بمفهومه السياسيّ يختلف عن بعض المصطلحات السياسيّة الأخرى التي قد تشترك معه في المعنى من بعض الوجوه؛ مثل: الوحدة، والانسجام، والتضامن، والأخوّة، وأمثال ذلك؛ لأنَّ الألفة السياسيّة تزيد عليها في كونها ترتكز على الإيمان ووجود الأسوة الحسنة، فضلًا عن كونهاتشترك معها في بعض الوجوه.

ولقد صرَّح القرآن الكريم بضرورة وجود الألفة في بعدها السياسيّ في قوله -تعالى-: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]، وأشار إلى ذلك في آيات أخرى.

وجدير بالذكر أنَّ الألفة السياسيّة لم تقتصر على حقبة زمنيّة معيّنة، بل تمتدّ جذورها إلى أعماق التاريخ، حيث كانت هناك إرهاصات تكشف عن إمكانيّة تحقيق هذه القضيّة حيثما توافرت شروطها، ووُجِدَت عناصرها المتمثّلة بوجود خليفة الله العادل، والمجتمع الإيمانيّ الذي يؤمن بالله -تعالى- ورسالاته.

وقد يرى بعضهم أنَّ تاريخ هذه الألفة السياسيّة بدأ مع نزول القرآن وبداية الدعوة الإسلاميّة، ولكنّ جذورها تمتدّ إلى ما قبل الإسلام، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[3].

إنَّ محاولة التعرّف على الجذور التاريخيّة للألفة تجعلنا قادرين على فهم الواقع الحقيقيّ لها ولبعدها السياسيّ، من خلال التعرُّف على أسبابها وتداعياتها ونتائجها وآثارها، فضلًا عن التعرَّف على طبيعة العلاقة السياسيّة التي كانت تربط القبائل العربيّة مع الحضارات القديمة، وطبيعة هذه العلاقة مع بلدن العالم في سياق الأُطُر التاريخيّة، منذ نشوء الحكومة الإسلاميّة في صدر الإسلام وإلى الواقع المعاصر.

(1) سورة الأنفال، الآية 63.
(2) سورة آل عمران، الآية 103.
(3) سورة قريش، الآيتان1-2.

أولًا: مفهوم الألفة السياسيّة:

1.الألفة لغةً واصطلاحًا:

أ. الألفة لغةً:

ذكر اللغويّون معانيَ لغويّة عدّة للفظة «الألفة»؛ أبرزها:

- الألفة في اللغة مصدر من باب علم، وتألَّف القوم: اجتمعوا وتحابّوا، وألَّفت بينهم تأليفًا. ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾[1]: المستمالة قلوبهم بالإحسان والمودَّة[2].
- قالَ الخَليلُ:«الأُلفَةُ مَصدَرُ الائتِلاف، وإلفك وأليفك: الذي يألفك، وأوالف الطير: التي قد ألفت مكة، وقول الله عزَّ وجلَّ:﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[3]. وَكُلُّ شَيءٍ ضَمَمتَ بَعضَهُ إلى بَعضٍ فَقَد ألَّفتَهُ تَأليفًا»[4].
- قال الراغب: «كلمة «الإلْفُ» بمعنى: اجتماع مع التئام، يقال: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه: الأُلْفَة. قال تعالى: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾[5]، وقال: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾[6]»[7].

ونستنتج من ذلك أنَّ مفهوم الألفة مفهوم عامّ ومطّاط، تتباين تطبيقاته واستخداماته-غالبًا- في حالات وأوضاع مختلفة؛ بحسب استعمال اللفظ.

بناءً على ذلك، فإنَّ لفظة «الألفة» قد تُطلق ويراد منها الألفة العاطفيّة، والألفة الزوجيّة، والألفة الأسريّة، والألفة الاجتماعيّة، والألفة السياسيّة.

والمراد من الألفة في هذه الدراسة الألفة السياسيّة.

(1) سورة التوبة، الآية 60.
(2) انظر: المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط1، طهران، مؤسّسة الطباعة والنشر في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ، 1417هـ.ق، ج1، ص107.
(3) سورة قريش، الآية 1.
(4) الفراهيدي، الخليل: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي؛ إبراهيم السامرائي، ط2، قم المقدّسة، مؤسّسة دار الهجرة، 1409هـ.ق، ج8، ص336.
(5) سورة آل عمران، الآية 103.
(6) سورة الأنفال، الآية 63.
(7) الأصفهاني، الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ط2، دفتر نشر الكتاب، 1404هـ.ق، ص81.

ب. الألفة اصطلاحًا:

ذكر الباحثون تحديدات اصطلاحيّة عدّة لمصطلح الألفة؛ أبرزها:

- تحديد عامّ للألفة، بأنَّها: اجتماع مع التئام ومحبَّة، وميلان القلب إلى المألوف[1]. وعلى هذا التعريف يكون معنى الألفة الاصطلاحيّ مشتقًّا من معناها اللغويّ.

-تحديد الألفة من وجهة نظر علم النفس، بأنَّها: «خاصّةُ تجاذُبِ الظواهر النفسيّة في المجال الشعوريّ بتداعي الأَفكار وترابُطها»[2].

- تحديد الأُلْفَة من وجهة نظر علم الأَخلاق، بأنّها: «وشيجة بين شخصين أَو أَكثر، يحدثها تجاذُب الميول النفسية، كصلة الصداقة ولُحْمة القرابة»[3].

ولا يمكن أن نعتبر التعريفين الأخيرين جامعين؛ لأنَّ المأخوذ بنظر الاعتبار فيهما علم خاصّ، لا الألفة بمعناها الشامل والعامّ الذي يتضمّن كافّة الأبعاد والجوانب.

- تحديد الألفة عند الجرجاني، بأنّها: «اتّفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش»[4].

وهذا التعريف-أيضًا- ليس تعريفًا جامعًا للألفة؛ لأنَّه يتناول جانبًا من جوانب الألفة لا جميعها، إذ إنَّ الألفة لا تقتصر على المعاونة في تدبير المعاش فحسب، بل شاملة لنواحي الحياة كافّة[5].

(1) انظر: عبد الله، صالح: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ط4، جدة، دار الوسيلة، 1426هـ.ق، ج2، ص495.

(2) مختار عبد الحميد، أحمد؛ بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربيّة المعاصرة، ط1، عالم الكتب، 1429هـ.ق/ 2008م، ج1، ص110.

(3) م.ن.

(4) الجرجاني، علي بن محمد: كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ.ق/ 1983م، ص51.

(5) انظر: الزبيدي، مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، 1414هـ.ق/ 1994م، ص37.

-تحديد الألفة بأنّها: «جمع القلوب على معاني الإخاء والمحبَّة ممّا يفضي إلى التقارب أو الاجتماع الشامل في جميع ميادين الحياة»[1].

ولا يمكن الأخذ بأيٍّ من هذه التعاريف؛ لأنَّها غير جامعة، ما عدا التعريف الأخير الذي قد يبدو للوهلة الأولى تعريفًا شاملًا، ولكنّه لم يكنْ مانعًا من دخول الأغيار، حيث جعل لفظ الإخاء والمحبَّة من معاني الألفة، مع أنَّها من المعاني القريبة منها، ولا بدّ من أنْ تدخل ضمن الألفاظ المشابهة لها.

ولهذا، يمكن تحديد الألفة بأنّها: اجتماع القلوب مع التئامها وميلانها إلى المألوف، والتوافق في الآراء للتعاون؛ بغية إدارة المجتمع بشكل يؤدّي إلى تحقيق الأهداف المنشودة على مختلف الأصعدة.

ج. الألفاظ المشابهة للألفة في القرآن الكريم:

- الإيلاف:

الإيلافُ في اللغة: العَهْدُ والذِّمامُ[2]. وفي التنزيل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[3]. وفي حديث ابن عباس «لقد علمت قريش أنَّ أوّل من أخذ لها الإيلاف لهاشم»[4]. فالإيلاف نقيض الاختلاف[5]. وهو مصدر من آلفه؛ بمعنى ألفه؛ لأنَّ في العهد ألفة واجتماع كلمة[6].

والإيلافُ: من يُؤْلِفُون أَي يُهَيِّئُونَ ويُجَهِّزُون، قال ابن الأَعرابي: كان هاشمٌ يُؤَلِّفُ إلى الشام، وعبدُ شمس يُؤَلِّف إلى الحَبَشةِ، والمطّلبُ إلى اليَمن، ونَوْفَلٌ إلى فارِسَ[7].

(1) الزبيدي، جليل محسن: أهل البيت وآثارهم الواردة في الألفة بين المسلمين -دراسة تحليليّة-، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1428هـ.ق، 2007م، ص37.
(2) انظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، م.س، ج12، ص89.
(3) سورة قريش، الآيتان 1-2.
(4) الزمخشري، محمود بن عمر: الفايق في غريب الحديث، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ.ق/ 1996م، ج1، ص49.
(5) انظر: الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ط2، طهران، مطبعة طراوت؛ نشر مرتضوي، 1983م، ج5، ص27.
(6) انظر: الزمخشري، الفايق في غريب الحديث، م.س، ج1، ص49.
(7) انظر: ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، قم المقدسة، نشر أدب الحوزة، 1405هـ.ق، ج9، ص10.

فالإيلافُ إنَّمَا هو العُهُودُ التي كانُوا يَأْخَذونَهَا إذا خَرَجُوا في التِّجَاراتِ، فيَأْمَنُونَ بها[1].

وبهذا يكون معنى الإيلاف في الاصطلاح: «أمان وعهد يُؤخذ لتأمين خروج التّجار من أرض إلى أرض»[2]، أو العهود التي كان رجال قريش يأخذونها من الملوك، فيأمنون بذلك حيث ساروا في رحلة الشتاء والصيف، ويتّجرون في أطراف البلاد[3].

- التألُّف:

التألُّفُ لغة: المُداراةُ والإيناسُ. وفي حديث حنين: إنّي أُعْطِي رجالًا حدِيثي عهد بكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهم، ومنه حديثُ الزكاةِ: سَهْمٌ للمؤلَّفة قلوبهم[4].

والتألُّف الجمع. قال الدردير: كافر يرجى إسلامه يعطى من الزكاة ليسلم، أو هو مسلم قريب عهد بإسلام يُعطى ليتمكّن من الإسلام[5].

والتألُّف في الاصطلاح: هو المداراة والإيناس لمنْ هم حديثو عهد بكفر؛ ليثبتوا على الإسلام؛ رغبة فيما يصل إلى أيديهم من المال[6].

وفي ضوء التعريف اللغويّ، يمكن أن يُعرَّف التألُّفُ اصطلاحًا بأنَّه: جمع القلوب وتطويعها؛ بمُداراة وإيناس قلب مَنْ أقبل على الإسلام ونيّته ضعيفة، فيتألّف؛ ليقوى إيمانه، ويألف المسلمين، أو مَنْ أسلم ونيّته في الاسلام قويّة، ولكنْ له شرف في قومه يتوقّع بإعطائه إسلام غيره من نظائره[7].

(1) انظر: الزبيدي، تاج العروس، م.س، ج12، ص99.

(2) مصطفى، إبراهيم؛ وآخرون (مجمع اللغة العربيّة): المعجم الوسيط، ط4، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، 1425هـ.ق/ 2004م، ج1، ص24؛ مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، م.س، ج1، ص110.

(3) انظر: العَوْتبي الصُحاري، سَلَمة بن مُسْلِم: الإبانة في اللغة العربيّة، ط1، سلطنة عمان - مسقط، وزارة التراث القوميّ والثقافة، 1420هـ.ق/ 1999م، ج4، ص175.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، م.س، 1405هـ.ق، ج9، ص11.

(5) انظر: الأحمد نكري، عبد النبي: دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ.ق/ 2000م، ج1، ص183.

(6) انظر: ابن الأثير، مجد الدين: النهاية في غريب الحديث، ط4، قم المقدسة، مؤسّسة إسماعليان، 1985م، ج1، ص60.

(7) انظر: الشربيني، محمد بن أحمد: مغني المحتاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1377هـ.ق/ 1958م، ج3، ص109.

- **التأليف:**

التأليف من الألفة، والتأليف من باب التفعيل، وليس من باب الإفعال؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[1]. فالنظر في باب الإفعال إلى نسبة الفعل إلى الفاعل أوّلًا، ثمّ إلى المفعول، بخلاف صيغة التفعيل؛ فإنّ النسبة فيها أوّلًا إلى المفعول. فالنظر في الإيلاف إلى إيجاد الألفة وإظهارها، وفي التأليف إلى تحقيق الائتلاف وإيقاعه بينهم في الخارج[2].

والتأليف هو ضمّ بعضٍ إلى بعضه الآخر، وجعل القطع المتفرّقة قطعة واحدة، والجمع بعد التفريق[3].

فالله -تعالى-يجمع -أحيانًا- مجموعة أجزاء مادّيّة مع بعضها ويؤلّفها؛ لتكون كتلة واحدة تؤدّي غرضًا أكبر، وهذا ما صوَّره القرآن الكريم في قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾[4]؛ مثلما يجمع الله القلوب ويؤلّف بينها لتكون كالقلب الواحد؛ لأجل تحقيق أهداف أعظم؛ كما صرَّح القرآن الكريم بذلك في قوله -تعالى-: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[5].

لقد اتّضح أنَّ الألفاظ المشابهة للفظة «الألفة» تتمحور حول معنى واحد؛ وهو تأليف القلوب واجتماعها بعد تفرّق، ومقاربتها لغرض إزالة الأحقاد والأضغان، وإيجاد المؤانسة بينها، والرغبة في تحقيق الأهداف السياسيّة الإسلاميّة السامية.

(1) سورة قريش، الآيتان 1-2.
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، م.س، ج1، ص108.
(3) انظر: الفراهيدي، كتاب العين، م.س، ج8، ص336؛ ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، لا ط، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ.ق، ج1، ص131.
(4) سورة النور، الآية 43.
(5) سورة آل عمران، الآية 103.

2. السياسة لغةً واصطلاحًا:

أ. السياسة لغةً:

السياسة في اللغة تعني تدبير شؤون الرعيّة وإدارة أمور المجتمع، كما صرَّحت بذلك كتب اللغة، فقد جاء في لسان العرب: السوس: الرياسة، وساس الأمر سياسة: قام به. قال ثعلب:

سادةٌ قادةٌ لكلِّ جمْعٍ ساسةٌ للرجالِ يومَ القتالِ وسُوِّس الرجل أمور الناس، إذ مُلِّك أمرهم. وفي الحديث: «**كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم**»؛ أي تتولّى أمرهم؛ كما يفعل الأمراء والولاة بالرعيّة[1].

ب. السياسة اصطلاحًا:

ذُكِرَت تحديدات عدّة لمصلح «السياسة»؛ أبرزها:

- عرَّف ابن عابدين السياسة فقال، هي: «استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجّي في الدنيا والآخرة»[2].

- قال الريشهري: «السياسة في الاصطلاح هي: معرفة الأدوات السياسيّة المشروعة، وتوظيفها لإدارة المجتمع، وتأمين الرفاه المادّيّ والمعنويّ للناس»[3].

ويُلاحظ أنّ هذه التعاريف تنسجم مع المفهوم العامّ للسياسة فقط، أمَّا لو أردنا أن نُعرّف السياسة تعريفًا يكون قريبًا لمعناها الخاصّ، فيمكن القول: إنَّها النشاط الاجتماعيّ الذي يؤدّي إلى توطيد العلاقات الخارجيّة والداخليّة، وتوفير الأمن الخارجيّ والتفاهم الداخليّ.

ومن خلال ما تقدَّم في التعريف اللغويّ والاصطلاحيّ للألفة وللسياسة، يمكن أنْ نعرِّف الألفة السياسيّة بأنَّها: العلاقة الإيمانيّة الناجمة عن اجتماع

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، م.س، ج6، ص108.

(2) ابن عابدين، محمد أمين: حاشية ردّ المحتار، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، بيروت، دار الفكر، 1415هـ.ق/ 1995م، ج4، ص178.

(3) الريشهري، محمد: موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنّة والتاريخ، ط2، قم المقدسة، دار الحديث، 1425هـ.ق، ج4، ص13.

القلوب وائتلافها؛ من أجل العمل على تحقيق أهداف سياسيّة مشتركة، وممارسة نشاط تعاوني؛ لتأسيس الحكومة العادلة، وإدارة المجتمع، في ظلّ إمام عادل.

أو هي تآلف المؤمنين في ظلّ إمام عادل، للعمل على توطيد العلاقات المحلّيّة، أو الإقليميّة، أو الدوليّة التي تربط مجتمعًا بآخر، وتحقيق الأهداف السياسيّة الكبرى؛ وفقًا للعهود والمواثيق القائمة على أساس المبدأ،أو العقيدة، أو الإيمان.

ثانيًا: الجذور التاريخيّة للألفة السياسيّة:

1. الألفة السياسيّة قبل نزول القرآن الكريم:

بدأت بوادر الألفة السياسيّة قبل ولادة رسول الله ﷺ، عندما أسّس جدُّه هاشم رحلتي الشتاء والصيف، وبهذا التدبير الحكيم استطاع أنْ يتفوَّق على قريش، فقد اختار الله -تعالى- هاشمًا؛ ليكون صاحب إيلاف قريش الرحلتين وأوّل من سنَّهما[1]. فكانت فكرة الإيلاف عبارة عن حلف قبليّ واسع يهدف إلى تأمين القوافل في هاتين الرحلتين، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله -تعالى-: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾[2].

وفي طبقات ابن سعد: «كان هاشم رجلًا شريفًا، وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر؛ لأنْ تَختلف آمنة. وأمّا مَنْ على الطريق، فآلفهم على أنْ تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق، فكتب له قيصر كتابًا وكتب إلى النجاشي أنْ يُدخِل قريشًا أرضه»[3].

إذًا، فالألفة السياسيّة لم تكنْ وليدة عصر الرسالة؛ بل كانت جذورها ضاربة في عمق التاريخ، وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم حينما تحدَّث عن

(1) الشريف المرتضى، علي: الأمالي، تحقيق: أحمد بن الأمين الشنقيطي، ط1، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1325هـ.ق/ 1907م، ج4، ص179.

(2) سورة قريش، الآيتان 1-2.

(3) ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى، لا ط، بيروت، دار صادر، لا ت، ج1، ص78.

الألفة التي منَّ بها الله -تعالى- على قريش؛ بسبب وجود الأسوة الحسنة التي كانت تتمثّل بسلالة الرسول ﷺ الطاهرة وأجداده الحنفاء؛ وذلك بعد أنْ اجتمعت شروطها وتحقّقت عناصرها. وعلى الرغم من أنّ هذه الألفة وهذا التآلف لم يرقَ إلى مستوى الألفة التي تحقّقت في زمن الرسول ﷺ، ولكنّها تعتبر مصداقًا آخر لنوع من أنواع الائتلاف السياسيّ، ودليلًا واضحًا على تحقّق مثل هذه الألفة على امتداد عصر الرسالات، وإن اختلفت التفاصيل، ولعلّ دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2]؛ يكشف عن مدى الارتباط بين إرادة السماء وتوافر الأرضيّة المناسبة لتحقيق هذا الإيلاف الذي يتّضح فيه الجانب السياسيّ؛ باعتباره يدلّ على استقرار الأمن، واستمراره في الحرم؛ لما يراه الناس من حرمة هذا البيت ووجوب تعظيمه الثابت في شريعة إبراهيم عليه السلام[3].

كما إنَّ اجتماع الحواريّين الذين جاء ذكرهم في سورة آل عمران وتآلفهم يمثّل صورة من صور الألفة السياسيّة الإيمانيّة، التي جعلتهم يتآلفون على أساس روح الإيمان، وتتّحد قلوبهم لنصرة النبي عيسى عليه السلام والدين الذي جاء به من عند الله تعالى، عندما أصبح مهدّدًا من قِبَل أعدائه؛ كما قال الله -سبحانه-: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4]، أو الفتية من أصحاب الكهف الذين تآلفت قلوبهم على الهدى والإيمان، فربط الله -تعالى- على قلوبهم وزادهم هدى، بتصريح قوله -تعالى-: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ

(1) سورة إبراهيم، الآية 35.
(2) سورة البقرة، الآية 126.
(3) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج3، ص354-355.
(4) سورة آل عمران، الآيتان 52-53.

هُدَى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾[1]. وهكذا يتعامل الله -عزَّ وجلَّ- مع المؤمنين الذي كانوا يتآلفون لنصرته ونصرة أنبيائه عليهم السلام؛ عندما يتعرّض الدين للأخطار التي تواجهه.

وواقع الأمر أنَّ البعد السياسيّ هو أوضح الأبعاد في الألفة التي تحدَّث عنها القرآن الكريم، والدليل على ذلك ما تقدّم من أنَّ المراد من تأسيس رحلتي الشتاء والصيف والألفة في هاتين الرحلتين، هو عقد معاهدات مع قيصر، وكسرى، والقبائل التي تمرّ فيها قوافلهم بين مكَّة واليمن، وبين مكّة والشام وفلسطين ومصر، بعدم التعرّض لها وحمايتها[2].

لكنّ هذا لا يمكن أنْ يتحقّق إلا مع الإيمان بالله -تعالى- واليوم الآخر، ووجود الأسوة الحسنة التي تتمثّل بالنبي صلى الله عليه وآله أو الإمام المعصوم عليه السلام أو مَنْ ينوب منابهما، والثلّة الصالحة من المؤمنين، مع رعاية موازين القسط والعدل.

وقد نجد بعضهم يذهب إلى خلاف هذا الرأي؛ استنادًا إلى بعض الروايات الواردة من أنَّ المراد من قوله -تعالى-: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ هو «وآمنهم من الجذام». فعن الحارث، عن الضحاك: «﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال: من خوفهم من الجذام»[3]، وعن ابن حميد عن سفيان: «﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، قال: من الجذام وغيره»[4].

مع أنَّ الشواهد التاريخيّة، فضلًا عن الروايات المستفيضة، لا تؤيّد ذلك، فقد روى الطبري عن ابن وهب، في قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، قال: «كانت

(1) سورة الكهف، الآيتان 13-14.

(2) انظر: الكوراني، علي: جواهر التاريخ (السيرة النبويّة)، ط1، مطبعة وفا؛ نشر باقيات، 1430هـ.ق، ج1، ص50.

(3) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، دار الفكر، 1415هـ.ق/ 1995م، ج30، ص398-399.

(4) م.ن.

العرب يَغير بعضها على بعض، ويَسبي بعضها بعضًا، فأَمنوا من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: ﴿أَوَ لَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنَا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1]»[2].

والذي نذهب إليه أنَّ عبارة ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ عامّة، فتشمل كلّ خوف، وإنْ كان المصداق الأوضح هو الخوف الناجم عن عدم الأمن والاستقرار السياسيّ، فالعدو مَخوف منه، والجذام مَخوف منه، ولم يخصّص الله -تعالى- الخبر عن أنَّه آمنهم من العدوّدون الجذام، ولا من الجذام دون العدوّ، بل عمَّ الخبر بذلك. فالصواب أنْ يعمّ كما عمَّ-جلّ ثناؤه-، فيقال: آمنهم من المعنيين كليهما، بل كل خوف من الممكن أن يتعرّضوا له.

فالخوف هو الفزع لتوقّع حدوث مكروه، أو فوت أمر محبوب، ولا يختصّ بتوقّع أمر مكروه دون مكروه، ولا فوت أمر محبوب دون محبوب.

والخوف ضدّ الأمن، قال اللَّه -تعالى-: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[3]، وقوله -تعالى-: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾[4]؛ أي: فزع لتوقّع ظلم المُوصَى وجوره[5].

فالروايات في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ تذكر للخوف مصاديق متعدّدة، وهو ما يؤكّد على أنَّ الخوف مختلفة مصاديقه، والدليل على ذلك ما ذكره الثعلبي في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾، قال: «إنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: وآمنهم أنْ تكون الخلافة إلا فيهم»[6].

وهذا يؤكِّد أهمّيّة الجانب السياسيّ في موضوع الألفة؛ باعتبار أنَّ الخلافة هي المصداق الواضح للعمليّة السياسيّة؛ لأنَّها تُشكِّل رأس الهرم

(1) سورة القصص، الآية 57.
(2) الطبري، جامع البيان، م.س، ج30، ص398.
(3) سورةقريش، الآية 4.
(4) سورة البقرة، الآية 182.
(5) انظر: عبد المنعم، محمود عبد الرحمن: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة، القاهرة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، لا ت، ج2، ص63.
(6) ابن البطريق، يحيى بن الحسن: عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، 1407هـ.ق، ص419.

في تأسيس الحكومة الإسلاميّة، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله هذا يشير إلى أهمّ عناصر تحقيق الألفة السياسيّة؛ وهي الخلافة العادلة التي يمنُّ بها الله -تعالى- على من يشاء من عباده، والتي لولاها لما تحقّقت هذه الألفة، وبنو هاشم كانوا هم المؤهّلين لهذه الرمزيّة الدينيّة السياسيّة.

ولا شكّ في أنَّ هذا أمر طبيعيّ، بعد أن اعترف الجميع بتميُّز فرع هاشم على بقيّة البطون في الفكر والقيم والشجاعة، وكانت قبائل العرب والملوك يحترمونهم احترامًا خاصًّا؛ ما جعل هاشم يُرتّب رحلة الصيف إلى الشام وفلسطين ومصر، ويكتب معاهدات مع القبائل والملوك؛ لتأمين سلامة قوافل قريش التجاريّة، ويواصل عبد المطّلب مآثره ليُرتّب رحلة الشتاء إلى اليمن، فمنَّ الله -تعالى- على قريش بفعلهما[1].

قال صاحب معجم قبائل العرب: «وكان هاشم أوّل مَنْ سنَّ الرحلتين، فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة، فيكرمه النجاشي، ويرحل في الصيف إلى الشام، وبها مات، وربّما وصل إلى أنقرة، فيدخل على قيصر، فيكرمه. ومن خصال بني هاشم ما عبّر عنها علي بن أبي طالب: خُصِّصنا بخمس: فصاحة، وصباحة، وسماحة، ونجدة، وحظوة»[2].

وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم**»[3].

إنَّ إيلاف قريش للرحلتين، وإنْ كان يرسم صورة من صور الألفة السياسيّة قبل نزول القرآن وانطلاق الدعوة الإسلاميّة، ولكنّها لم تبلغ الصورة المثاليّة

(1) انظر: الكوراني العاملي، علي: مكتبة الطالب(5): صراع قريش مع النبي صلى الله عليه وآله، ط1، قم المقدّسة، دار الهدى، 1427هـ.ق/ 2006م، ص9.

(2) كحالة، عمر: معجم قبائل العرب، بيروت، دار العلم للملايين، 1388هـ.ق/ 1968م، ج3، ص1207.

(3) الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط2، بيروت، دار الفكر، 1403هـ.ق/ 1983م، ج5، ص245؛ النيسابوري، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، بيروت، دار الفكر، ج7، ص58.

التي تجسّدت لهذه الألفة في عصر الرسالة ووجود النبي الأعظم ﷺ والثلّة الصالحة من المؤمنين، بل كانت تمثّل مرحلة انتقاليّة وتأهيليّة امتنَّ الله -تعالى- بها على قريش؛ بهدف جعل العبادة لله -تعالى- وحده، والإذعان إلى أنَّه صاحب النعمة والمنَّة، وأنَّه يصطفي من عباده من يشاء؛ ليكون خليفته في أرضه، وهذا ما نستنتجه من جواب الإمام الحسين عليه السلام على كتاب معاوية؛ حينما حاول أنْ يأخذ البيعة ليزيد وتوليته من بعده، حيث قال عليه السلام: «**سبحان الله يا معاوية! لكأنّك لست من هذه الأمَّة، وليسوا منك. أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنَّه على دين علي، ودين علي هو دين ابن عمه ﷺ، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا، منَّة عليكم**»[1].

ولا يخفى أنَّ الله -تعالى- قد وضع عن معاوية وأمثاله ما كانوا يعتبرونه أكبر شرفٍ لهم؛ وهو رحلة الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن للتجارة، مع ما فيهما من تجشّم العناء، الذي كان يقلّل من وطأته الإيلاف الذي امتنّه الله -تعالى- على قريش ببني هاشم، فضلًا عن المنَّة العظمى التي امتنّها -سبحانه- على معاوية وأمثاله برسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام؛ وهي نعمة الألفة التي تحقّقت عند مجيء الإسلام، ووضعت عنهم تجشّم عناء الرحلتين، ولكنَّ معاوية، مضافاً إلى أنّه لم يشكر النعمة التي منَّها الله -تعالى- عليه وعلى أمثاله -حينما جعل أجداده يألفون رحلة الشتاء والصيف، ويرفع عنه وعن أمثاله تجشّم عنائهما بالألفة السياسيّة الإسلاميّة- أخذ يتّهم ذرّيّة رسول الله وعترته الطاهرة عليهم السلام بأنَّهم من شقَّ عصا الأمَّة وأورد الناس إلى الفتنة، في كتابه الذي أرسله إلى الإمام الحسين عليه السلام، حينما شعر بأنَّه يُشكِّل خطرًا عليه وعلى سلطانه؛ ما حدا بالإمام

(1) ابن قتيبة، محمد: الإمامة والسياسة، تحقيق: طه محمد الزيني، مؤسّسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا ت، ج1، ص156.

الحسين عليه السلام أن يوجّه له رسالة شديدة اللهجة، ويجيبه بالقول: «**أولست صاحب الحضرميّين الذين كتب إليك ابن سميّة أنَّهم على دين عليّ، فكتبت إليه: اقتل مَنْ كان على دين عليّ ورأيه، فقتلهم ومثَّل بهم بأمرك، ودين عليّ دين محمّد صلى الله عليه وآله الذي كان يضرب عليه أباك، والذي انتحالك إيّاه أجلسك مجلسك هذا، ولولا هو كان أفضل شرفك تجشِّم الرحلتين في طلب الخمور، وقلت: انظر لنفسك ودينك والأمّة، واتّق شقّ عصا الألفة، وأن تردّ الناس إلى الفتنة، فلا أعلم فتنة على الأمّة أعظم من ولايتك عليها، ولا أعلم نظرًا لنفسي وديني أفضل من جهادك**»[1].

هذه الرسائل المتبادلة بين معاوية والإمام الحسين عليه السلام التي كان الهدف منها أخذ البيعة ليزيد، بيَّنت مساعي معاوية لشقِّ عصا المسلمين، وكذلك مدى حرص سلالة النبي الطاهرة عليهم السلام على جمع كلمة المسلمين ولمِّ شتات الأمَّة، والتذكير بأعظم منَّة منَّها الله -تعالى-على قريش والقبائل العربيّة القاطنة في الحجاز؛ وهي نعمة الألفة السياسيّة التي جعلتهم ينعمون بالأمان قبل الدعوة الإسلاميّة، ورفعت راية الإسلام خفَّاقة، وأعزَّت المسلمين -أيضًا- في ظلّ حكومة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

2. الألفة السياسيّة بعد نزول القرآن الكريم:

بعد أن تعرَّفنا على الجذور التاريخيّة للألفة السياسيّة، وتبيّن أنَّها مسألة قابلة للتحقّق، وإنْ كانت بأشكال مختلفة، بحسب الشروط المتوافرة، وأوضاع الحقبة التاريخيّة التي تتحقّق فيها، نشرع الآن بذكر أوضح صورها ومصداقها الأكمل الذي ذكره القرآن الكريم؛ ليكون أنموذجًا للقيادات السياسيّة المؤمنة، ومثالاً حيًّا يتعايش مع كلّ عمل أو نظام سياسيّ؛ بهدف تحقيق الأهداف السماويّة التي دعت إليها الشريعة الإسلاميّة.

فالمثال الواضح للألفة السياسيّة التي تحدَّث عنها القرآن الكريم؛ هي

(1) البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، جمعيّة المستشرقين الألمانيّة، 1400هـ.ق/ 1979م، ج5، ص121.

الألفة التي تحقّقت بين الأوس والخزرج، بعد أنْ كانوا يعيشون حالة من التقاطع والاختلاف والتمادي؛ ما جعلهم يعيشون في نزاع دائم وصراع مستمرّ، يتفرّقون أحزابًا، فتثور بينهم بالتحزّب والافتراق أحقاد الأعداء وأضغان البعداء، وعلى الرغم من أنَّ هذا التقاطع والتعادي كان حالة مستشرية في المجتمع الجاهليّ القبليّ، فقد كان الاختلاف والتباين بين الأوس والخزرج أكثر منه عند غيرهما، إلى أنْ أسلموا، فذهبت إحنهم، وانقطعت عداوتهم، وصاروا بالإسلام إخوانًا متواصلين، وبألفة الدين أعوانًا متناصرين، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم في قوله-تعالى-: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[1].

والخطاب في هذه الآية إنَّما هو للأوس والخزرج، وإنْ كان هذا اللفظ يصلح للانطباق على العرب جميعها، وقد كانت بين الأوس والخزرج عداوة وحروب؛ منها: يوم بعاث، وغيره، حتّى رفعها الله -تعالى- بالإسلام[2].

ولا شكّ في أنَّ اللَّه -سبحانه- هو الذي ألَّف بين قلوب الصحابة، بعد أنْ كانت عصيّة على التأليف؛ بخاصّة بين الأوس والخزرج اللذين امتدّت الحروب بينهما 120 سنة، وسبب التأليف بين قلوب أصحاب محمدﷺ هو الإسلام وإيمانهم به؛ نظريًّا وعمليًّا، والإسلام من عند اللَّه، فصحّت النسبة إليه تعالى[3].

وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم في الآية الأخرى التي نزلت للتأكيد على هذا الحدث التاريخيّ السياسيّ المهمّ، حيث قال -سبحانه-: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[4].

(1) سورة آل عمران، الآية 103.
(2) انظر: الأندلسي، عبد الحقّ: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ.ق، ج1، ص484.
(3) انظر: مغنية، محمد جواد: تفسير الكاشف، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1981م، ج3، ص403.
(4) سورة الأنفال، الآية 63.

لقد كانت الأنصار في غاية التنافر والتقاطع؛ لِمَا وقع بينهم من حرب، فحاول حكماؤهم وأولو الرأي منهم، التأليف بينهم وإصلاح ذات بينهم، بأفانين الدعاية؛ من خطابة، وجاه، وشعر، فلم يصلوا إلى ما ابتغوا حتّى ألَّف الله -تعالى- بين قلوبهم بالإسلام، فصاروا بذلك التأليف بمنزلة الإخوان[1].

ومن الطبيعي أنْ تكون هناك محاولات للإصلاح بين الأوس والخزرج قبل الألفة التي أنعم الله -تعالى- بها عليهم؛ بفضل وجود النبي الأعظم ﷺ، فصار الذين دخلوا في الإسلام إخوانًا، أولياء بعضهم لبعض، لا يصدّهم عن ذلك اختلاف أنساب، ولا تباعد مواطن، وهذا يؤكِّد أنَّ الألفة السياسيّة بحاجة إلى تدخّل العامل الإلهيّ الذي لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الإيمان، والعقيدة الراسخة، والتمسّك بمبادئ العدل، ومحاربة الفساد.

والذين يعرفون حالة نفوس المتعصّبين والحاقدين في العصر الجاهليّ، يدركون أنَّ تلك الأحقاد والضغائن لم يكنْ بالإمكان إزالتها، لا بالمال، ولا بالجاه والمقام؛ لأنَّها كانت لا تزول عندهم إلا بالانتقام الذي يتكرّر بصورة متسلسلة فيما بينهم، والأمر الوحيد الذي أمكن بسببه قلع تلك الجذور الفاسدة من أصولها؛ هو إحداث ثورة عارمة وتغيير شامل في الأفكار والأرواح والعقائد، ودرء الأحقاد والضغائن، وقلع جذور العصبيّة القبليّة العمياء. وهذه أمور لا يمكن إيجادها بالثروة ولا بالمال، بل في ظلال الإيمان والتوحيد الخالص فحسب[2].

فبعد أنْ أنهكت هذه الحروب الأهليّة اليثربيّين؛ أوسهم وخزرجهم، مال الطرفان إلى الصلح، وقرّر عقلاء الطرفين وضع حدّ لهذه الحال، فاتّفقوا على تنصيب رجل واحد منهم يقبله الطرفان، فوقع الاختيار على عبد الله بن أبي بن سلول؛ ليكون ملكًا على يثرب، وكاد أنْ يتمّ له ذلك، لولا قدوم الرسول ﷺ الذي آلَّف بينهم، وغيَّر أحوالهم، وبدَّل تاريخهم.

(1) انظر: ابن عاشور التونسيّ، محمد الطاهر: التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تونس، الدار التونسية للنشر،1984م، ج3، ص252.

(2) انظر: الشيرازي، ناصر مكارم: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط1، قم المقدسة، منشورات الحوزة العلمية، 1404هـ.ق، ج5، ص480-481.

فزال ذلك بالإسلام، بعد أنَّ ألّف الله -سبحانه- بدينه بينهم، وأنهى حرب «بعاث» المبيدة بين الأوس والخزرج التي كانت قائمة على ساقها دهرًا طويلًا حتّى اصطلحوا بنزول الإسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخوانًا، فالله -تعالى-امتنّ على المسلمين بتأليفه بين قلوبهم[1].

وقطعًا لا يتمّ ذلك إلا بالتعاون والتعاضد بين أبناء النوع الإنسانيّ؛ وهو ما يتوقّف على اجتماع همّهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الألفة بالمحبّة؛ حتّى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه، ولنْ يتمّ ذلك إلا بنفي الضغائن والأحقاد[2].

هذه الألفة التي تحقّقت في مجتمع الرسالة المدنيّ، والقدرة التي ألَّفت بين قلوب المؤمنين، تكشف عن وجود هدف واضح المعالم، غايته تأسيس نظام سياسيّ إلهيّ تتكفّل بإدارته الثُّلة الصالحة من المؤمنين الرافضة للتحزّبات، والعصبيّات، والطائفيّات، والسياسات التي تفرّق الأخ عن أخيه، وتجعله يختزن الحقد في نفسه ضدّ أخيه المسلم الآخر، وهذا ما يجب أنْ تتطلّع إليه كلّ التيّارات والقوى السياسيّة التي تؤمن بضرورة إحقاق الحقّ، ورعاية العدل والإنصاف، وانتهاج القيم السماويّة التي تحفظ كرامة الإنسان وتضمن حرّيّاته وحقوقه، وتحقّق له سعادة الدنيا والآخرة.

ثالثًا: أهداف الألفة السياسيّة وغاياتها:

لو تمعّنا في آيات الذكر الحكيم، لوجدنا أنَّ هناك جملة من الأهداف والغايات العامَّة، تنسجم مع البعد السياسيّ للألفة، وأبرز هذه الأهداف:

1. تقوية الجانب السياسيّ وتعزيز القوَّة العسكريّة:

يُعدّ الجانب السياسيّ من الجوانب المهمَّة والأساسيّة في القرآن الكريم

(1) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج9، ص118 ـ 119.
(2) العاملي(الشهيد الثاني)، زين الدين: رسائل الشهيد الثاني، طبعة حجريّة، قم المقدّسة، منشورات مكتبة بصيرتي، ص288.

عمومًا، وفي الألفة خصوصًا، فالألفة السياسيّة جزء من كلّ؛ لأنَّ القرآن الكريم لم يكنْ كتابًا للرهبنة والتصوّف، بل هو كتاب يعالج جميع المجالات الحياتيّة التي يعيشها الإنسان.

ومن هذا المنطلق، قدّم القرآن الكريم أطروحات سياسيّة فطريّة كثيرة؛ من قبيل: الاستخلاف الإلهيّ للإنسان، وإقامة حكومة العدل[1]، حيث قال -تعالى-: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾[2].

وأطروحة الألفة السياسية واحدة من الأطروحات القرآنيّة التي يمكن استخراجها من الذِكْر الحكيم، حيث أشارت لها بعض آياته المباركة، من قبيل قوله -تعالى-: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[3]، وقوله -سبحانه-: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[4].

ولا شكّ في أنَّ الألفة التي ذكرها القرآن الكريم لها بُعدها السياسيّ الذي يهدف إلى تحقيق مبادئ العدل والإنصاف، وبناء نظام إسلاميّ يرتكز على قواعد الإيمان؛ لإحلال الأمن والسلام في جميع ربوع العالم.

ولهذا، كان اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر؛ ليكون للمسلمين يَدٌ على مَنْ سِوَاهُم، من قوانين الشرع التي يجب أنْ يشترك في التزامها الخليفة الوَلِيُّ والأمير الْمُسْتَوْلِي، ووجوبها في جهة المتَوَلِّي، فضلًا عن حفظ منصب الإمامة في خلافة النبوّة وتدبير أمور الملَّة؛ ليكون ما أوجبه الشرع من إقامتها مَحفوظًا، وما تَفرَّعَ عنها منالحقوق مَحرُوسًا[5].

(1) انظر: الأعرجي، زهير: النظريّة الاجتماعيّة في القرآن الكريم، ط1، قم المقدّسة، مكتبة أنوار الهدى، 1415هـ.ق/ 1994م، ص213.
(2) سورة ص، الآية 26.
(3) سورة الأنفال، الآية 63.
(4) سورةآل عمران، الآية 103.
(5) انظر: الماوردي، علي بن محمد: الأحكام السلطانيّة والولايات الدينيّة، ط2، مكّة المكرّمة، دار التعاون، 1386هـ.ق/ 1966م، ص34.

فكانت الألفة السياسيّة أحد المفاهيم القرآنيّة السياسيّة التي أكّد عليها الإسلام؛ لأنّها من أبرز المقولات التي تساعد مسؤولي النظام السياسيّ والشعب على العمل من أجل تحقيق الأمن والتنمية والتطوّر على المستوى السياسيّ.

ومن الواضح أنّ استقرار النظام السياسيّ يحتاج إلى قوّة عسكريّة؛ ليتمكّن من الحفاظ على أمن الدولة وهيبتها، ومقدّرات الشعوب ومصالحها؛ لذلك تعدّ الألفة السياسيّة القاعدة الأساس لتشكيل هذه القوّة وتعزيز قدراتها، ومن هنا، أصبحت القوّة العسكريّة هدفًا استراتيجيًّا من أهداف الألفة السياسيّة، وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم في قوله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[1]. وذلك في الوقت ذاته الذي يدعو فيه القرآن الكريم إلى الجنوح للسلم واتّخاذ المواقف الإيجابيّة مع الأطراف الأخرى، وعليه عقّب الله -تعالى- على الآية السابقة بالقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[2]. وبذلك يتّضح جليًّا دور الألفة السياسيّة في تعزيز القوّة العسكريّة وتحقيق النصر المؤزّر؛ عندما لا ينفع منطق العقل وصيحات الدعوة إلى السلام، وعندما يتّخذ الأعداء والمنافقون سلوك أساليب المكر والخداع. قال -تعالى-: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[3].

وفي تفسير ذلك، قال الشيخ الطوسي: «فالتأييد التمكين من الفعل على أتمِّ ما يصحّ فيه، تقول: أيّده تأييدًا، وتأيّد تأيّدًا. والأيد القوّة. والمعنى أنَّ الله قوّاه بالنصر من عنده، بالمؤمنين الذين ينصرونه على أعدائه. والتأليف الجمع على تشاكل، فلمّا جُمِعَت قلوبهم على تشاكل فيما تحبّه،

(1) سورة الأنفال، الآية60.
(2) سورة الأنفال، الآية 61.
(3) سورة الأنفال، الآيتان 62-63.

وتنازع إليه؛ كانت قد ألّفت. والمراد بالمؤمنين الأنصار، وبتأليف قلوبهم ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والقتال»[1].

إذًا، فالآيات المتقدّمة تُبيِّن ضرورة التعبئة العسكريّة، ولزوم الاستعداد لمواجهة الأعداء؛ بوصفه أصلًا ثابتًا، وأنَّ هذا الاستعداد لا يختصّ بأجهزة الحرب والأسلحة الحديثة لكلّ عصر فحسب، بل يتّسع ليشمل كلّ أنواع القوى والقدرات التي يكون لها أثرٌ ما في الانتصار على الأعداء؛ سواء من الناحية المادّيّة أم المعنويّة. وتؤكّد الآيات -أيضًا- على أنَّ الألفة السياسيّة أدَّت إلى حالة معنويّة، كانت السبب في تأييد الله -تعالى- لرسوله ﷺ بالمؤمنين، بعد محاولة الأعداء الكيد به، وإعدادهم للخطط المدمّرة التي لم تكنْ الغلبة عليها بالوسائل المألوفة ممكنة، لكنَّه -عزَّ وجلّ- حفظه ورعاه في مواجهة كلّ ذلك، بعد أنْ أحاط به المؤمنين المخلصين من كلّ جانب، ولم يدّخروا وسعًا في الدفاع عنه،على الرغم من أنَّهم كانوا قبل ذلك متشتّتين متعادين، ولكنّ الله -تعالى- شرح صدورهم بأنوار الهداية وألّف بين قلوبهم[2].

2. تعميق العلاقات الإنسانيّة:

إنّ الهدف الإنسانيّ واضح في أطروحة الألفة السياسيّة في القرآن، إذ إنَّ هذه الألفة التي جاءت بمجيء الإسلام حملت معها القيم الإنسانيّة التي تتطلّع إليها كافّة شعوب العالم، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الهدف الإنسانيّ، من خلال قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[3].

فالألفة السياسيّة هي نظام الإيمان الذي يهدف إلى استقامة أمور العالم، وإيجاد المحبّة والألفة مع الشعوبكافّة.

(1) الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، ط1، قم المقدّسة، مطبعة مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1409هـ.ق، ج5، ص151.

(2) انظر: الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،م.س، ج5، ص470-480.

(3) سورة الحجرات، الآية 13.

وهذا ما أشار إليه الرَّاغب الأصفهانيّ في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[1]، حيث قال: «قوله: وَلاَ تَفَرَّقُواْ حثٌّ على الأُلْفَة والاجتماع، الذي هو نظام الإيمان واستقامة أمور العالم، وقد فضَّل المحبَّة والأُلْفَة على الإنصاف والعدالة؛ لأنَّه يحُتاج إلى الإنصاف حيث تُفقد المحبَّة. ولصدق محبَّة الأب للابن صار مؤتمنًا على ماله، والأُلْفَة أحد ما شرَّف الله به الشَّريعة، سيَّما شريعة الإسلام»[2].

فالهدف الإنسانيّ للألفة السياسيّة بدأ يتحقّق بعد أنْ كانت الأمَّة تعيش مفكّكة في حالة من الانطواء على الذات تحت وطأة الحروب والتناحرات وفقدان الأمان؛ وذلك بمجيء نبي الرحمة محمدﷺ، واستبدل الخوف بالأمن، والحرب بالسلام؛ حيث إنَّ جذور الإسلام المتمثّلة فيمعتقداته الفكريّة، أثمرت الأحكام الشرعيّة والآداب والأخلاق السلوكيّة. ثمَّ إنَّ هذه الالتزامات المتنوّعة نسجت بدورها رواق الحضارة الإنسانيّة التي مدَّت جسور الألفة والتعاون بين المسلمين وغيرهم، في شركة عادلة متكافئة تسعى إلى هدف إنسانيّ واحد[3].

3. تنظيم شؤون الحياة الاجتماعيّة:

لا تقتصر آثار الألفة السياسيّة على النظام السياسيّ في الحكومة الإسلاميّة وحسب، بل إنَّ لهذه الألفة الأثر الكبير على تنظيم شؤون حياة المجتمع، ومن ثمَّ كان الهدف الاجتماعيّ أحد الأهداف المُهمَّة لهذه الألفة؛ لما يترتّب على هذه الألفة من الآثار الجليلة في صلاح المجتمع وفساده، وبناء الوطن على المحبَّة الصادقة والرقي والإيمان، أو انحطاطه وتخلّفه.

وقد فطر الله -سبحانه- الإنسان على الحياة الاجتماعية، لقصور ما عنده

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

(2) الأصفهاني، الحسين بن محمد: تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: عادل بن علي الشِّدِي، ط1، الرياض، دار الوطن، 1424هـ‍ـق/ 2003م، ج2، ص768.

(3) انظر: البوطي، محمد سعيد؛ كينغ، هانز: دور الأديان في السلام العالميّ، ط1، دمشق، دار الفكر؛ بيروت، دار الفكر المعاصر، 1434هـ‍ـق/ 2013م، ص35.

من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريّات حياته، ومن الضروري أنَّ الاجتماع لا يتمّ إلا باختصاص كلّ فرد بما يحرم عنه آخرون؛ من مال، أو جاه، أو زينة، أو جمال، أو كلّ ما يتنافس فيه الطباع الإنسانيّ، أو يتعلّق به الهوى النفسانيّ؛ على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة. وهذا أوّل ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب، والشحّ في النفوس، ويثير في داخل النفوس كلّ بغضاء وشنآن، فلا سبيل إلى قلع مادّة هذا الفساد من أصلها وقطع منابته؛ فإنّ الدار دار تزاحم، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص، والنفوس مختلفة في الاستعداد، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثّرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم وحياتهم، لكنَّ الله -تعالى- مَنَّ على الأمَّة الإسلاميّة؛ إذ أزال الشحّ عن نفوسهم، وألّف بين قلوبهم[1].

ولهذا روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنَّه قال: «**طوبى لمن يألف الناس ويألفونه على طاعة الله**»[2]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**رحم اللَّه امرأً ألَّف بين وليّين لنا، يا معشر المؤمنين، تألَّفوا وتعاطفوا**»[3].

فالمؤمن مألوف في المجتمع، ويتّصف بحسن أخلاقه وسهولة طباعه ولين جانبه، وهو يألف الخير وأهله ويألفونه بمناسبة الإيمان، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف؛ لضعف إيمانه، وعسر أخلاقه، وسوء طباعه[4].

لقد جاء التأكيد في الروايات الشريفة متناغمًا مع دورها في تقوية أسس البناء الاجتماعيّ، ولاسيّما المضمون العاطفيّ والروحيّ للعلاقة الاجتماعيّة؛ لأنَّ هذا المضمون من أهمّ عناصر تقويتها وإرسائها على أساس محكم[5].

(1) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج9، ص119-120.

(2) النوري، حسين: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ط1، بيروت، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1408هـ.ق/ 1987م، ج8، ص451.

(3) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، ط5، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1984م، ج2، ص345.

(4) انظر: المناوي، محمد: فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1415هـ.ق/ 1994م، ج6، ص329.

(5) انظر: الحكيم، محمد باقر: دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة، ط2، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، 1425هـ.ق، ج2، ص18-21.

فالله -تعالى- أراد بالألفة أنْ يجعل أبناء المجتمع إخوة متحابّين في الله، ينتمون إلى نظام سياسيّ، تتكفّل بإدارته العناصر الإيمانيّة، من أجل إيجاد التكافل وتحقيق العدالة الاجتماعيّة، وحينما تلتحم الأواصر بين أفراد المجتمع المؤمن ويرتبط قلب أحدهما بقلب الآخر؛ يحصل بينهما الودّ والمحبَّة والألفة والتعاون.

إذًا، فلا يمكن أنْ يكون مشروع الألفة السياسيّة متكاملًا، وإنْ تحقّقت العناصر الأساس لهذا المشروع، من دون الأخذ بنظر الاعتبار البعد الاجتماعيّ لهذه الألفة؛ ولذلك نجد أنَّ معظم المشاريع التي تُطرح تعبيرًا عن رغبة جماهيريّة، لا يمكن لها النجاح من دون مشاركة جماهيريّة فاعلة، فالصيغ مهما كان جمالها لا تكتسب قيمتها إلا من خلال احتياج الناس إليها، والتركيز على هدفها الاجتماعيّ، إذ إنَّ إعطاء المساحة التي يحتاجها هذا الهدف كفيل بإيجاد حالة من الألفة تؤدّي إلى واقع وحدويّ لا يمكن إلغاؤه أو تجاهله[1].

وعلى ضوء ذلك، تكون الألفة السياسيّة من أهمّ عوامل بناء النسيج الاجتماعيّ على أساس الحقوق المشتركة، وتنظيم شؤون المجتمع وتلبية متطلّبات الحياة الاجتماعيّة، في إطار المصالحة بين أبناء الأمَّة الواحدة، وطيّ الخلافات، وتجاوز الصراعات، وفتح صفحة جديدة من التعايش السلميّ؛ للقضاء على الفساد في المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة.

4. استقرار الوضع الاقتصاديّ والأمنيّ:

لعبت الألفة السياسيّة دورًا بارزًا في استقرار الوضع الاقتصاديّ والأمنيّ، وهذا لا يخفى على مَنْ يقرأ تاريخ القبائل العربيّة قبل الإسلام، الذي وثَّقه القرآن الكريم في سورة قريش، حيث مَنَّ الله -تعالى- على قريش، وجعلها

(1) انظر: البرغثي، محمد حسن: قياس اتّجاهات الرأي العامّ الليبيّ نحو مسألة الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 2007م، ص91.

تألف رحلة الشتاء والصيف وتعيش حالة الاستقرار الأمنيّ والاقتصاديّ، بعد أنْ كانت تخشى من سطوة العدو.

فالمقصود من قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[1] هو إيجاد الألفة بين قريش وهذه الأرض المقدّسة؛ وهي مكة والبيت العتيق؛ لأنَّهم، وأهل مكّة كلّهم، اختاروا السكن في هذه الأرض؛ لمكانتها وأمنها، فالكثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون إلى البيت الحرام كلّ سنة، ويقترن حجّهم بنشاط أدبيّ واقتصاديّ في هذا البلد الأمين. ذلك كلّه كان يحدث في ظلّ الجوّ الآمن[2].

لقد وفّرت الألفة السياسيّة لأهل مكّة أوضاعًا اقتصاديّة آمنة، على الرّغم من جفاف بلادهم وفقرها؛ وذلك بعد أنْ أنعم الله -تعالى- عليهم بالأسفار التجاريّة الضخمة التي كانت إحداها إلى اليمن في الشّتاء، والأخرى إلى الشّام في الصّيف؛ بدليل قوله -تعالى-: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾[3]. ولا شكّ في أنَّ كلّ مجتمع، وكلّ دولة، وكلّ أمّة؛ بحاجة إلى عنصرين أساسين؛ وهما: الاستقرار الاقتصاديّ، والاستقرار الأمنيّ. ولهذا روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ أصبح معافًى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه؛ فكأنّما خيرت له الدنيا**»[4].

وهذا دليل على أنَّ الاقتصاد والأمن يمثّلان الشريان الرئيس والعرق النابض في حياة الأمم ونموّ حضاراتها؛ لذا، فالعالم الإسلاميّ لا يمكنه السير نحو نهضة حضاريّة؛ إلا بتضافر مقوّماته المتكاملة في إنشاء اقتصاد واضح المعالم، وأمن مستتب.

فالعلاقة بين الأمن والوضع الاقتصاديّ واضحة، والقرآن الكريم قد أشار إلى ذلك في بعض آياته؛ ومنها: قوله -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ

(1) سورة قريش، الآية 4.
(2) انظر: الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، م.س، ج5، ص481.
(3) سورة قريش، الآيتان 1-2.
(4) ابن بابويه، محمد بن علي (الصدوق): الأمالي، ط1، قم المقدّسة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، 1417هـ.ق، ص469.

ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1].

فلو فُقِد الأمن؛ لما اطمأنّ الإنسان على إدامة حياته في مكانه المعيّن، وإذا فُقِدَ الاثنان، فلا رغبة حقيقيّة لأحد على الإنتاج وتحسين الوضع الاقتصاديّ[2].

وكما كانت الألفة السياسيّة كفيلة بالاستقرار الاقتصاديّ والأمنيّ قبل الإسلام، فقد لعبت دورًا أساسًا في استقرار هذين الشريانين الرئيسين بعد الإسلام؛ لأنَّ أصل النزاع بين الأوس والخزرج في يثرب يرجع إلى عوامل اقتصاديّة وسياسيّة، فالعوامل الاقتصاديّة مصدرها تَطلُّع زعيم الخزرج عمرو بن النعمان البياض إلى إنزال قومه في منازل بني قريظة، والنضير، وكانت أكثر مياهًا وأكرم نخلًا. وقد تسبّبت الحروب بين الجانبين في خسائر كثيرة لهما في الأرواح والأموال والأملاك، ولكنّ فطنة الأوس والخزرج في نهاية المطاف إلى دسائس اليهود، وما كانوا يسعون إليه بضرب فريق منهم بالآخر، جعلت الأوس والخزرج يعمدون إلى تحقيق السلام بينهما في يثرب[3].

هذه الحروب الطويلة أتت على مقدّرات القبيلتين الاقتصاديّة، وأضعفت قدراتهما المعيشيّة، وقُتل فيها خير رجالهما وزعمائهما، وأصبح هذا الأمر سببًا للإخلال بأمنها الداخليّ والخارجيّ، بعد أنْ ارتهن قرارهما السياسيّ وسيادتهما إلى قوى خارجيّة بعضها داخل يثرب، وبعضها الآخر خارجها.

وعلى الرغم من المساعي الحثيثة التي كانت تبذلها بعض الأطراف، كانت محاولات الإصلاح بين قبيلتي الأوس والخزرج مصيرها الفشل، إلى أنْ تصدَّى رسول الله ﷺ لذلك، وتمكّن من الإصلاح بينهما، بعد أنْ طحنتهما الحروب الطويلة.

(1) سورة النحل، الآية 112.

(2) انظر: الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، م.س، ج8، ص352.

(3) انظر: إسماعيل، حلمي محروس: الشرق العربيّ القديم وحضاراته، الإسكندريّة، مؤسّسة شباب الجامعة، 1997م، ص243-244.

وبعد أنْ تحقّقت الألفة السياسيّة بين الأوس والخزرج، تمكّنوا من النهوض مع سائر إخوانهم المؤمنين بالأمَّة الإسلاميّة من جوانبها الأمنيّة والاقتصاديّة، وأخذ كلٌّ منهم يعمل على تقديم المعونة والدعم إلى الآخر؛ ما أدَّى إلى ارتقاء الأمَّة الإسلاميّة ونهوضها في الجانب الأمنيّ والاقتصاديّ؛ نتيجة لتآلف القلوب، والاهتمام بتحسين الوضع الأمنيّ، الذي يعتبر أحد الأسس في تحقيق الوضع الاقتصاديّ الأمثل.

خاتمة:

بناءً على ما تقدّم، يظهر أنّ الألفة السياسيّة في أدبيات القرآن الكريم تحمل بُعدًا سياسيًّا هامًّا عندما نتمعّن في معاني هذه الآيات وتفسيرها، بل إنَّ ذلك يستدعي التأسيس لأطروحة قرآنيّة في العلوم الإنسانيّة تحمل عنوان «الألفة السياسيّة في القرآن الكريم»، حيث يتحقّق مفهوم الألفة السياسيّة عندما تتقارب القلوب وتلتئم؛ للابتعاد عن النزاع والتفرقة والتجاذبات السياسيّة التي تحول دون إنجاز الأعمال الكبرى والأهداف العظمى.

كما إنَّ محاولة التعرّف على الجذور التاريخيّة للألفة تجعلنا قادرين على فهم الواقع الحقيقيّ لها ولبعدها السياسيّ، من خلال التعرُّف على أسبابها وتداعياتها ونتائجها وآثارها، فضلًا عن التعرَّف على طبيعة العلاقة السياسيّة التي كانت تربط القبائل العربيّة مع الحضارات القديمة، وطبيعة هذه العلاقة مع بلدن العالم في سياق الأُطُر التاريخيّة، منذ نشوء الحكومة الإسلاميّة في صدر الإسلام وإلى الواقع المعاصر.